مقتولاً بيد أعداء اللَّه. للَّه درُّك يا عمر «حتى الموت.. يموت الناس مرَّة، وأنت تموت مرَّتَيْن! لماذا؟ ألاأنَّ اللَّه يريد أن يرفعك بذلك مرَّتين، ويُعطيك على ذلك أجريْن: أجر الشهيد الذي عايَنَ الموت وذَاقَهُ، ثم أجر الشهيد ـ مرة ثانية ـ الذي أراد أعداؤه أن يقتلوه مرَّة ثانية.. وتلك علامات القَبُول.. وذلك أول تاجٍ من تيجان الآخرة»[1].

* الشيخ عزّ الدين القسام إمام وشيخ حركة الجهاد في فلسطين عام ١٩٣٥م:

القسّام:

القسّام القسّام.. اسم سوف يبقى في فلسطين يتردد في أجوائها فيوقع الرعب في قلوب الذين يسيطرون عليها بحرابهم، ويُتلى في صفحات تاريخها الخالدة، فيملأ نفس القارئ إكباراً وإعجابًا.

❑ قال الأستاذ محمد حسن شُرَّاب: «ثبت عندي للقسّام منقبتان جامعتان لكل خلال الخير وهما: أنه شيخ المجاهدين في فلسطين، ورائد من رُوّاد الدعوة إلى اللَّه وإصلاح المجتمع على نهج السلف الصالح»[2].

❑ ولد الشيخ محمد عز الدين بن عبدالقادر بن مصطفى القسّام الشهير «بعز الدين القسّام» في بلدة جَبَلة وهي ثغر من ثغور المسلمين من أعمال حلب قرب اللاذقية عام ١٣٠٠هـ الموافق ١٨٨٣م.

وكان جده مصطفى مقدمًا في الطريقة القادرية الصوفية وورث عبدالقادر الطريقة عن أبيه، وكان أنصار الطريقة القادرية في العراق يقدمون

---

(١) «عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء» (ص٥٦، ٥٧).

(٢) «عز الدين القسّام شيخ المجاهدين في فلسطين» لمحمد حسن شرّاب (ص١٤) ـ دار العلم دمشق.

إلى جبلة لزيارة ضريحي عبدالقادر ووالده مصطفى في جبلة، فكان عز الدين يردع هؤلاء، ويحثهم على الامتناع من شد الرحال إلى جبلة لهذا الغرض.

ورحل في طلب العلم إلى الأزهر عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٦م ونال شهادة الأزهر العالية بعد أن أمضى حوالي ثماني سنوات في جوار الأزهر.

❑ وفتح مدرسة في جبلة سنة ١٩١٢م درّس فيها للأطفال واليافعين نهارًا، وللرجال الكبار مساء، وهذه فضيلة لم يسبقه إليها أحد من رجال الإصلاح في العصر الحديث.

❑ ودرّس الحديث، وتفسير القرآن العظيم في جامع إبراهيم بن أدهم، ثم صار خطيبًا في جامع المنصوري في وسط البلدة، وجذب الناس إليه.

*** وكان الإسلام يمتزج بدمه:**

❑ ولما غزا الإيطاليون ليبيا ثارت موجة عارمة من الغضب بين أهل الشام، وكان للقسّام دور بارز في قيادة حملات تجنيد الشباب للجهاد، وجندّ - رحمه اللّه - مئات الشباب من الساحل السوري، وقادهم بنفسه، وتعهدهم بالتدريب العسكري والفكري، وقام أيضًا بحملة لجمع الأموال والمؤن الكافية للنفقة على المتطوعين وأسرهم، ولمساعدة المجاهدين في ليبيا. واتصل عز الدين القسّام بالحكومة التركية، وحصل على موافقة الباب العالي في إستانبول بنقل المتطوعين إلى الإسكندرية.

وكانت هناك صعوبات كثيرة أمام الرجال، ولكن القسام صمم على لقاء الأشقاء المجاهدين في ليبيا، وأن ينقل إليهم ما استطاع جمعه من معونات مادية، وانتقل سرًّا إلى الأراضي الليبية، والتقى القسّام بالمجاهد الكبير عمر المختار.

ولم يشارك القسّام في الثورة العربية المسلحة، ولم يحمل سلاحًا ضد الأتراك المسلمين وذلك لفقهه الكبير، ولم يشق عصا الطاعة على ولاة الأمر من الأتراك، واعتزل ـ رحمه اللّه ـ الحرب ورجع إلى بلده بعد سنة ١٩١٦م.

□ ولما احتل الأسطول الفرنسي اللاذقية والساحل السوري في ١٠/ ١٠/ ١٩١٨م كان القسّام ممن مَنْ رفع راية مقاومة الفرنسيين في تلك المنطقة، وأول من حمل السلاح في وجهها. وكان من نتاج دعوته أن اندلعت نيران الثورة في منطقة صهيون.

وباع القسّام بيته لشراء السلاح ليكون قدوة للناس، وجعل يدرب المتطوعين على استعمال السلاح وفنون القتال عند شاطئ خليج بحري يُدعى «البحيص» جنوب جبلة.

ولما رأى عيون الفرنسيين يضيّقون عليه، ورأى أن منازلتهم في سهول جبلة المكشوفة تتيح لجيشهم قمع ثورته، فتطلع إلى موقع أكثر حصانة، وأبقى على الجهاد فاختار جبال صهيون ميدانًا للجهاد، وفيهم شطرها من رجاله، واتخذ قاعدة عسكرية في قمة منيعة قرب قرية «الزنقوفة» يغيرون على المراكز العسكرية الفرنسية في الجبال وفي مشارف المدن الساحلية.

وحاول الفرنسيون استمالته بأن أرسلوا إليه رسولاً بالكفّ عن مقاومتهم في مقابل تعيينه قاضيًا شرعيًّا في المنطقة، ورفض البطل دعوتهم، وقال لرسولهم: عُد من حيث أتيت، وقل لهؤلاء الغاصبين: «إنني لم أقعد عن القتال أو ألقى اللّه شهيدًا».

فلما عجز الفرنسيون عن استمالته وثنيه عن الجهاد حكم عليه الديوان العُرفي فيما كان يُسمّى بدولة العلويين بالموت غيابيًّا.

ولم يذهب القسام وحيدًا إلى ميدان الجهاد، وإنما ذهب على رأسه أتباعه وتلامذته، وكان معه في جبال صهيون عمر البيطار ورجاله.

ومن أشهر معارك القسام وجماعته «معركة بانيا» حين تمكن القسّام مع ثلة من المجاهدين من القيام بغارة ليلاً على الثكنة الفرنسية، وقتل حاميتها في آذار ١٩٢٠م.

ولما لم يجد القسام المدد الذي طلبوه من القيادة السياسية في دمشق انتقل ـ رحمه اللّه ـ من جبلة، انتقل منها وكان له شرف المشاركة في ملحمة ميسلون في ٢٤/٧/ ١٩٢٠م التي قُتل فيها البطل يوسف العظمة وعدد كبير من رفاقه.

وبعد معركة ميسلون عاد القسام إلى بيروت ومنها إلى دمشق للدفاع عنها، ومنها إلى صيدا، ومنها إلى عكا متخفيًا، وهاجر القسّام إلى فلسطين ليتابع الجهاد، واستقر في حيفا يدرس ويفتي ويربي.

«وفي سنة ١٩٣٤م قال له عامل من عمال الميناء، عندما استمع إلى درس الجهاد: «هل سمع «سيدنا» بحكاية البراميل التي اكتُشِفت مصادفة، وهي مملوءة بالأسلحة الفتّاكة التي يهربُها اليهود ليومهم الموعود»؟ فانتفض الشيخ وابتسم. وفي العشرين من تشرين الثاني ١٩٣٥م نشرت الصحف خبرًا هزّ العالم العربي يقول: إن الشيخ القسّام يلبس الكوفية والعقال و«البنطال» الكاكي والسلاح هو ورجاله، ويتدربون في غابات «يَعْبُد» بقضاء جنين استعدادًا للجهاد. فكانت هذه الثمرة الحيفاوية باكورة الجهاد الفلسطيني، وهي الفكرة التي أصلحت مسار العمل العسكري، بل أوجدته»[1].

وكانت الأحزاب السياسية مناهجها تقوم على المظاهرات، وإجراء اتصالات مع المندوب السامي، وإلقاء الخطب، وإرسال الوفود، وليس ثمة تفكير في الدعوة إلى الجهاد كما قال إبراهيم طوقان ساخرًا من الزعماء

(١) «عز الدين القسّام» لمحمد مُحمد حسن شرّاب (ص١٢٧).

السياسيين:

أنتمُ المخلصون للوطنيّه ... أنتمُ الحاملون عبء القضيه
أنتم العاملون من غير قولٍ ... بارك اللّه في الزنود القويّه
«وبيان» منكم يعادل جيشا ... بمعدات زحفه الحربيّه
«واجتماع» منكم يردُّ علينا ... غابر المجد من فتوح أميّة
وخلاص البلاد صار على الـ ... ـباب وجاءَتْ أعياده الورديّة
ما جحدنا «أفضالكم» غير أنّا ... لم تزل في نفوسنا أمنيّة
في يدينا بقية من بلاد ... فاستريحوا كيلا تطير البقيّه

وقال ـ رحمه اللّه ـ:

أنتم رجالُ خطابات مُنَمّقة ... كما علمنا وأبطال احتجاجات
وقد شبعتم ظهوراً في مظاهرةٍ ... مشروعة وسكرتم بالهتافات
أضحت فلسطينُ من غيظٍ تقول لكم ... خلوا الطريق فلستم من رجالاتي

وكان القسام ـ رحمه اللّه ـ يحاضر المسلمين ويعظهم في مسجد الجرينة الكبير وجامع الاستقلال ويبصّرهم بواقع الأمة ويربيهم على الجهاد.

ولما «سُئِل ـ رحمه اللّه ـ عن رأيه في أساليب الزعماء المعتمدة على محاورة الإنكليز، فأجاب: «من جرّب المجرَّب فعقله مخرَّب»، وقال مرة: «من جرّب المجرَّب فهو خائن»، وهو يشير إلى تجربة العرب مع الإنكليز إبّان الثورة العربية على العثمانيين»[٢].

وأعلن القسّام أن الإنجليز رأس البلاء والداء، ويجب توجيه

(١) المصدر السابق (ص١٣٣).
(٢) «عز الدين القسّام» لشراب (ص١٤٧).

الإمكانات كلها لحربهم، وطردهم من فلسطين قبل أن يتمكنوا من تحقيق وعدهم لليهود.

ودعا القسّام المسلمين إلى التمرّد، وحرّضهم على ألا يسمعوا للعساكر البريطانية.

«ففي أواخر سنة ١٩٣٤م، سأل القسّام المصلين من على المنبر: «هل أنتم مؤمنون؟»، وأجاب: «لا أعتقد»، وسكت قليلاً، ثم تابع كلامه قائلاً: «لأنه لو كنتم مؤمنين، لكانت لكم عزّة المؤمن، فإذا خرجتم من هذا المسجد وناداكم جندي بريطاني، فلا تطيعوا نداءه.

واتّجه القسّام إلى توعية الشعب بالشرور المحدقة بهم، وكان يكثر من قوله: «بأن اليهود ينتظرون الفرصة لإفناء شعب فلسطين، والسيطرة على البلاد، وتأسيس دولتهم».

❑ ومن باب التحريض على الجهاد دعا القسّام إلى توجيه اقتصاد البلد إلى شراء الأسلحة، وأنكر في هذا السبيل سياسة «المجلس الإسلامي الأعلى» في تزيين المساجد وبناء الفنادق، وقال: يجب أن تتحول الجواهر والزينة في المساجد إلى أسلحة، فإذا خسرتم أرضكم فإن الزينة لن تنفعكم وهي على الجدران.

وحذر الشيخ عز الدين المصلين في إحدى خطب الجمعة سنة ١٩٢٧م من التساهل مع الهجرة اليهودية التي تحتل البلاد، ودعاهم إلى استقبال هذا العدو القادم بعربات الانتداب الإنكليزي وحمايته، بوصفهم أعداء لا بوصفهم ضيوفًا».

وكان ـ رحمه اللّه ـ في مسجد الاستقلال يردد دائمًا الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. ويُسهب في شرح ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فأولوا الأمر هم المسلمون أما الإنكليز

فلا طاعة لهم على المسلمين، وكان الإنكليز يبثون على لسان «القاديانية» ومركزها «حيفا» أن الدولة البريطانية وليّة أمر المسلمين ولها عليهم حق الطاعة.

❑ وفي سنة ١٩٢٩م عُلِمَ أن اليهود يأتمرون للهجوم على جامع الاستقلال، فطلب وجوه المسلمين في حيفا من السلطات البريطانية أن ترسل قوة لحراسة المسجد من الهجوم المُدبّر، فثار القسّام على هذا الاقتراح، وقال في خطاب ألقاه بهذه المناسبة: «إن جوامعنا يحميها المؤمنون منّا، إن دمنا هو الذي يحمي مساجدنا لا دم الآخرين» ووصف الطلب بالجبن، وعدّه دليلاً على الخضوع والذل. ولما دعته السلطات للتحقيق في كلامه، لم ينكره، وعندما أُوقف، أعلنت المدينة الإضراب، فاضطرت السلطات إلى إخراجه من السجن، وتجنّبت حكومة الانتداب اعتقاله فيما بعد[١].

❑ وفي الثلاثينيات حين شاعت حوادث قطع الطرق، وظهور عصابات السّلب، برز اسمُ «أبو جلْدة»[٢] وأحيط بهالة من التقدير، بوصفه معبراً عن الحس الشعبي، ورغبته في مقاومة الانتداب، وفي سنة ١٩٣٢م سُئِل الشيخ عن رأيه في أهل «الشعراوية» وجبل نابلس الذين يقطعون أشجار اليهود، ويَسُمُّون الحيوانات، وينعتهم الناس باللصوصية وقطّاع الطرق، فأجاب: «دعهم يعملون؛ لأن في عملهم رجولة سنحولّها في يوم من الأيام إلى جهاد، وما دام المستعمر يرغب في إماتة قلوبنا، فإن هؤلاء أقرب إلى اللّه

---

(١) المصدر اسابق (ص١٤٨).

(٢) أبو جلدة: صعلوك فاتك، ولكنه كان يسلب الإنكليز واليهود فقط. ذكره المؤرخ الروسي في كتابه «تاريخ الأقطار العربية المعاصر» فقال: في سنة ١٩٣٢م. برز زعيم فصائل الفدائيين البطل الشعبي «أبو جلدة» الذي كان يزرع الرعب في قلوب المستعمرين ببسالته وجرأته.

وإلى حب الجهاد من المستكينين»[1].

❑ واستطاع القسّام في عشر سنوات أمضاها في جامع الاستقلال، أن يجعل الناس مستعدين لتلبية نداء الجهاد، وصارت الكلمات الجهادية المقدسة من خطبه، على لسان الجمهور، من ذلك قوله: «المجاهد رائد قومه، والرائد لا يكذب أهله»، وقوله: «الجهاد رفيقه الحرمان» أي الصبر على المشقة، وكان شعار القسّام وتلاميذه «هذا جهاد، نصر أو استشهاد».

❑ ومن خلال اتصال القسّام بالقوى البشرية عن طريق المسجد، استطاع أن يُقوّم القدرات الوطنية للجهاد، ووازن بينها وبين قدرات الأعداء، فوجد القوة الوطنية تفوق قوى الأعداء، فثبت في نفسه أن الأسلوب العسكري للوصول إلى الحق هو الأسلوب الناجح، وأن الطرق السلمية التفاوضية فيها إذلال للمسلمين؛ لأنها تجبر الأسد القوي «وهم العرب» أن يفاوض الكلب (وهم الأعداء). ونقل الرواة عن ابنة القسّام ميمنة هذه الحادثة: «إذ رأته صباح يوم هائجًا هياجًا شديدًا، يردّد أشعارًا حماسية حربية، فخشيت من مغبّة هذا الهياج، وقالت له: إن الطريق السلميّة هي خير طريق يمكن أن يسلكه شعب أعزل كشعبنا؛ لأن القوة يجب أن تجابهها قوة مثلها، ونحن لا قوة لدينا ولا مال، قالت ميمنة: ولكن الوالد الشهيد لم يتركني أتمّ كلامي، بل صاح بصوته الجَهْوري: اصمتي يا ميمنة. ثم أطرف برهة، وأنشد وهو ينظر إليّ:

واعلم بأن عليك العـــار تلبَسُــه ... مَن عَضَّه الكلب لا من عضّه الأسدُ

ولم يكن القسّام مبالغًا في تقديره وتقويمة لقلة الأعداء، فقد قدّر عدد اليهود في فلسطين سنة ١٩٢٢م (٨٣٠٠٠) ثلاثة وثمانون ألفًا، وبلغت

(١) «عز الدين القسّام» (ص١٥٠ ـ ١٥٣).

نسبتهم لمجموع السكان (١١٪)، وفي سنة ١٩٣١م قدّر عدد اليهود (١٧٤٠٠٠) مئة وأربعة وسبعون ألفًا، وبلغت نسبتهم ١٦٪.

❑ وفي سنة ١٩٣٦م عجزت القوات البريطانية عن السيطرة على فلسطين، وحرّر المجاهدون أجزاء كبيرة من فلسطين، لولا وساطة (أصنام العرب) في فلسطين وخارجها التي نصبها الأعداء لتقرّب العرب إلى الإنكليز زُلْفى، وكانت هذه الأصنام، بل شياطينها، تعِد الناس بالمواعيد العرقوبية، وتوحي إلى المسلمين بأن قوة الأعداء العسكرية تفوق قوة العرب عددًا وعُدّة، وأنه لا سبيل إلى الخلاص منهم إلا بالحُسنى، فيطفئون حركة الجهاد، وبينها وبين النصر قاب قوسين أو أدنى، أطفأ اللّه نور قبورهم.

وقد ركّز القسّام عنايته في التوجيه إلى معاني الجهاد، وتصحيح المفهومات السياسية الدارجة، ولكنه لم ينس ثلاث قضايا:

الأولى: الدعوة إلى إخلاص العقيدة للّه وحده، وتنقية المفهومات الدينية الشائعة من الشوائب، والرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة، مصدرين لكل توجهات المسلمين.

وفي هذا السبيل حارب البدع المتصلة بالجنائز والمآتم، والمولد النبوي، وشهر رمضان... إلخ.

وخاض من أجلها معركة شاركه فيها محمد كامل قصّاب، وألّفا فيها كتاب «النقد والبيان في دفع أوهام خزيران».

الثانية: الغزو الفكري المدعوم من اليهود والإنكليز، وكانت حيفا مركزًا لفرقتين ضالتين هما: البهائية والقاديانية.

الثالثة: اكتشاف القادرين على الجهاد وتنظيمهم في خلايا سرية، ولما تأسست جمعية الشبان المسلمين في فلسطين كان القسّام رئيسًا لجمعية حيفا، وقد واظب القسّام على تقديم محاضرة دينية أسبوعية في جميعة الشبان

المسلمين مساء كل جمعة، فكان يذهب كل أسبوع، مع فئة من أعضاء الجمعية للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلى القرى، وأسس ـ رحمه اللَّه ـ فروعًا لجمعيات الشبان المسلمين في اللواء الشمالي، أصبحت غطاءً مناسبًا لعمل رفاق القسّام في قراهم المحلية.

❑ قال أحمد القشيري: «كنت على معرفة وطيدة بالشيخ عز الدين القسّام، عرفته تقيًّا ورعًا، خطيبًا دينيًّا صالحًا، واجتمعت به في مؤتمرات جمعيات الشبان المسلمين في حيفا وغيرها، ولم يكن يدور في خلدي أو خلد غيري، حتى من أصدقائه المقربين، أن هذا الشيخ المعمم، إمام الجامع كان يهيئ نفسه لقيادة ثورة مسلحة ضد السلطات البريطانية مباشرة»[1].

❑ كان القسّام ـ رحمه اللَّه ـ جريئًا في قول الحق، لا يخاف في اللَّه لومة لائم.

«كان يقرر من على المنبر أن الجهاد فريضة على المسلمين، وأنه لا مفرّ من محاربة الإنكليز وأعوانهم، وكان يطلب من الناس جهراً شراء السلاح والتدرب عليه.

واستدعته سلطات الانتداب مرة للتحقيق حول تركيزه على آية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] في إحدى خطبه، فأجاب القسّام، بأن الآية الكريمة جزء لا يتجزأ من القرآن، وأنّ واجبه يحتّم عليه شرح هذه الآية في ظل الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد.

وطلب مرة من المصلين أن يقاوموا الأعداء فوقف أحد المصلين وسأله: بماذا نقاوم الأعداء ونحن لا نملك سلاحًا؟

فأجاب الشيخ: بقتلهم وأخذ السلاح منهم.

---

(١) «أربعون عامًا في الحياة العربية» لأحمد الشقيري (ص١٣٩).

وروى الشيخ أحمد السعدي ـ رئيس بلدية جنين ـ أن القسّام، رفع يومًا مسدسًا أمام المصلين، وكان قد دبّر طريقة لإخفائه، وقال: من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر، فليقتن مثل هذا»[1] .

* عز الدين القسام شيخ المجاهدين بفلسطين سلفي العقيدة والمنهج:

❏ قال الشيخ محمد محمد حسن شُرّاب: «أخذ عز الدين ثقافته الإسلامية من القران والسنة الصحيحة، ونهل من السيرة النبوية المشتملة على بيان شمائل الرسول ﷺ التي يكون للمسلمين بها أسوة حسنة. ودرس سير الصحابة، فصدر بعد كل هذا عن عقيدة سلفية لم تتأثر بمذهب قديم أو اتجاه حديث»[2] .

«كان همه الأول تخليص الدين من الشوائب، وإخلاص العقيدة للَّه وحده، حارب القسام ذهاب الناس إلى «مقام الخضر»[3] على سفوح جبل الكرمل لذبح الأضاحي شكرًا على شفاء من مرض، أو نجاح في مدرسة. ودعا القسّام الناس إلى أن يتوجهوا بنذورهم وأضاحيهم إلى اللَّه تعالى فقط؛ لأنه ـ وحده ـ القادر على النفع والضر، وأما أصحاب القبور فلا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.

وبالجملة فإن العقيدة السلفية الصحيحة، والثقافة الإسلامية المقتبسة من القرآن والسنة أثرت في تلاميذ القسّام»[4] ، وانطبعوا بطابع التربية الإسلامية الإيمانية، سلوكًا وأقوالاً. وقد وصف أحمد الشقيري أصحاب القسّام، وقد

---

(١) «عز الدين القسّام» (ص١٩٨).

(٢) «عز الدين القسّام» (ص١٧٠).

(٣) يقع عند أقصى حد حيفا إلى الغرب من سفح جبل الكرمل.

(٤) «عز الدين القسّام» (ص١٥٥).

عايش عدداً منهم، ودافع عنهم ـ بوصفه محاميًا ـ أمام الإنكليز، فقال: «لم تجر على ألسنتهم تعابير «الكفاح المسلح» و«الحركة الوطنية» و«الاستعمار والصهيونية»، فقد كانت تعابيرهم على بساطتها تنبع من ينبوع أروع وأرفع هو «الإيمان والجهاد في سبيل اللَّه» لقد كانوا قومًا مؤمنين، صنعهم الإيمان، فصفت نفوسهم، وتآلفت إرادتهم، وتعاظمت عزائمهم، وأحسّوا أن حبلهم مع اللَّه قد أصبح موصولاً، وأن الباب بينهم وبينه قد بات مفتوحًا»[1].

«ومنذ تولّي عز الدين القسام أمر تعليم الناس في المدارس والمساجد أخذ على نفسه تقويم ما اعوج من أمر المسلمين، وأن يرجعهم إلى الإسلام المصفى الخالي، ورأى أن يبدأ بمرحلة الدعوة والتعليم لتربية جيل مؤمن بربه متمسك بسنة النبي ﷺ، فأخذ يحارب البدع والخرافات.. ويدعو الناس إلى نبذ البدعة، ومن هنا بدأ الصراع بين أنصار البدع وبين المذهب السلفي الذي اتبعه القسام»[2].

والذي يفهم من سيرة القسّام أنه كان مربيًا سلفيًا داعيًا يعمل لكي «يعود للدين مجده بسيطرة السنة، ومحق البدعة، وعودة مجد الدين، هو عودة لمجد أهله المتمسكين به».

«إن من يقرأ كتاب «النقد والبيان» للقسّام يعلم تمام العلم أنه ما حاد عن السلفية منهجًا وعقيدة قدر أنملة.

لم يكن القسّام ـ رحمه اللَّه ـ حاطب ليل بل كان يميز بين الصحيح والضعيف من الأحاديث النبوية وكان يدعو إلى العلم الصافي قبل القول والعمل، وكان يأمل في الإعداد المرحلي، والتّدرج في الإعداد فما أمهله أعداؤه حتى يصل إلى ما يريد.

---

(١) «أربعون عامًا» لأحمد الشقيري (ص١٤٥).

(٢) «عز الدين القسام» لشراب (ص١٧٦).

القسام البطل المتواضع الذي حرص على الاتصال بكل فئات شعبه، وكان يمتلك قلوب الناس بشخصيته الجذابة المحبوبة» هذا البطل الذي جعل من باعة الكاز «الجاز» قادة ومجاهدين عظماء.

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «يمين اللَّه إن شباب العصر الأخير ابتعدوا كثيرًا من النهج القويم، وأمعنوا في الضلال، فلم يبق على هذه الأمة إلا أن تعتصم بما في قلوب الفلاحين والعمال من بساطة وإيمان، وبعد عن بهارج مدنيَّتكم الزائفة»[١].

❑ وكان ـ رحمه اللَّه ـ: يقول: «خبرتي الطويلة تجعلني أرجو خيرًا من الفلاحين والعمال، فهم واثقون باللَّه، مؤمنون بجنات الخلد واليوم الآخر، ومن كانت هذه صفاته كان أقرب الناس إلى التضحية وأجرأهم على الإقدام»[٢].

يرحم اللَّه البطل الذي بسّط العقيدة للعوامّ وشوّقهم إلى البذل والعطاء والجهاد.

❑ إن الإنسان ليعجب حين يكتب الناس زورًا وبهتانًا عن القسّام فينسبونه إلى الصوفية فيجعلونه شيخ الزاوية الشاذلية، كما ترجم له صاحب «الأعلام الشرقية»[٣]، وهذا كذبٌ صراح.

❑ إن أبطال ثورة البراق كانوا من تلاميذ القسّام، وإن لم يتوفّر دليل على أنهم كانوا أعضاء في التنظيم السري.

ومن الذين شاركوا في ثورة البراق من إخوان القسّام: عبداللَّه الأصبح، الذي كان له جهاد مشهود في منطقة «صفد»، والشيخ فرحان

(١، ٢) المصدر السابق (ص٢٠٣ ـ ٢٠٤).

(٣) «البطولة والفداء عند الصوفية» لسعد الخطيب (ص٢٢٥ ـ ٢٢٨) دار الفكر ـ سورية.

السعدي في قضاء جنين.

وفي المدة من ١٩٣١ ـ ١٩٣٥م، تأكد أن أعضاء المُنظمتين قاموا بأعمال عسكرية في قضاء حيفا.

وكانت أولى العمليات، الهجوم على مستعمرة (الياجور) قرب حيفا ليلة ٥/ ٤/ ١٩٣١م فقتلوا ثلاثة من اليهود، وعادوا دون أن يتركوا أثرًا، كما هجم القسّاميون على مستعمرة (بلغوريا) ومستعمرة (كفار هاسيديم» ومستعمرة (عتليت) ومستعمرة (العفولة) في المرج.

*** عملية «نهلال» ضربة موجعة في أكبر رموز الصهيونية:**

❑ العملية العسكرية التي أغضبت الإنكليز واليهود، وأدخلت الرعب إلى قلوبهم هي عملية (نهلال) ليلة ٢٢/ ١٢/ ١٩٣٢م. فقد قام المجاهد أحمد الغلاييني ـ الذي يعمل سمكريًّا ـ بصنع ألغام في معمله في حيفا، وأعطى لغمًا منها لمصطفى علي الأحمد، فوضع اللغم في منزل حرس مستوطنة (نهلال) وسيّر إخوان القسّام قطيعًا من الغنم على الطريق، فذهب الأثر. فانفجر اللغم، وأدى إلى قتل يهوديين، وإصابة اثنين بجراح. فكانت هذه الواقعة ضربة مؤثرة موجعة في أكبر رموز الصهيونية في فلسطين، وهي مستعمرة (نهلال) حيث يقول «وايزمن» في وصفها: «إن (نهلال) مستعمرة ذات قيمة خاصة في نظري؛ لأنني منها أبتدئ سياحتي، وبها أختمها، وهي رمز عملنا العظيم في مرج ابن عامر، ولست أُبالغ إذا وصفتها بأنها قلب المرج، وعندما تقترب مني الأيام الصعبة أتطلّع إلى (نهلال) لأستمد منها التعزية.

وحكم بالإعدام على مصطفى الأحمد وبالسجن خمسة عشر عامًا على أحمد الغلاييني، ودامت الأعمال العسكرية سنوات، كانت من أشدّ ما قام به المجاهدون في فلسطين تأثيرًا فألقت الرعب في قلوب اليهود؛ لأنهم رأوا

عملاً جديداً يُنفّذ بالسلاح، لم يعرفه اليهود من قبل، ومع كثرة هذه الأعمال، وتعدد أشكالها، فإنها ظلت محاطة بالسريّة والكتمان. وابتدأت المنطقة تشهد أعمالاً بطولية عظيمة فمنذ أوائل ١٩٣٥م شهد المثلث العربي جنين نابلس طولكرم سيلاً من الاغتيالات للضباط الإنجليز ونسف القطارات، وهوجمت معسكرات الجيش البريطاني، وقتل أي عربي يثبت لدى الوطنيين اتصاله بالبريطانيين اتصالاً مريبًا.

وكانت هذه الأعمال تتم تحت جنح الظلام، وفي فترات متعاقبة في غاية الدقة والتنظيم والسرية، وسرت روح الجهاد بين الشعب فتتابع تنظيم التشكيلات السرية، وزادت متاعب البريطانيين وإرهابهم.

*** الاستعداد للجهاد:**

أرسل القسام أحد إخوانه (محمود سالم المخزومي)[1] الملقب (أبو أحمد القسام) إلى سماحة رئيس المجلس الإسلامي الأعلى (الحاج أمين الحسيني) ليعلمه عن عزمه القيام بثورة في فلسطين للقضاء على فكرة الوطن القومي اليهودي، وذلك سنة ١٩٣٥م قبل ثورة القسام بأشهر قليلة، وفعلاً، اتصل رسول القسام بالحاج أمين بواسطة الشيخ (موسى العزراوي) ـ رحمه اللّه ـ أحد أعوان الحاج أمين، وأعلمه عن رغبة القسام: وهي أن يشرع الحاج أمين في الإعداد للثورة في جنوب فلسطين، حيث يعد القسام العدة في شمال فلسطين.

فأجاب الحاج أمين بواسطة (العزراوي) أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا

---

(١) «ثورة الشيخ عز الدين القسام» لعوني العبيدي (ص٥٥). وقال الأستاذ عوني العبيدي: ذكر لي ابن الشيخ أبو إبراهيم الكبير «أبو نبيل»: أن الذي كان يرسله القسام إلى الحاج أمين الحسيني هو الشيخ «كامل القصاب»، وليس محمد سالم المخزومي كما ذكر.

العمل، وأن الجهود السياسية التي تبذل تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم، إذ كان حَسَنَ الظن بالإنكليز[١] .

وباع القسام بيته الوحيد في حيفا، وباع أصحابه حليَّ زوجاتهم، وبعض أثاثهم، واشتروا بثمنها رصاصًا وبنادق[٢] .

*** القسام يعلن الجهاد المقدس:**

وبعد أسبوعين من مهاجمة قوات البوليس الإنكليزي للمتظاهرين العرب في القدس، وفي ليلة ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٥م جمع الشيخ عزالدين القسام إخوانه في مدينة حيفا، وأبلغهم أنه قرر إعلان الجهاد المقدس، وأبلغهم أنهم سيغادرون تلك الليلة إلى أرض المعركة، وقال لهم إن شعار جهاده (أن يذهب كل مجاهد إلى أهله يستودعهم اللَّه، ويواعدهم اللقاء في الجنة)، ثم يلتئم جمعهم في بيت القائد محمود سالم المخزومي، ليتوجهوا من هناك إلى أرض المعركة، وخرجوا وخرج القسام الذي جاوز الستين من عمره بعد أن ودع زوجته وأولاده الصغار.

وقد اختار أرض معركته في المناطق الجبلية، وكان أقربها إلى حيفا جبال جنين، فتوجه موكب المجاهدين في تلك الليلة إلى قرية (كفردان)، وهناك وزع رفاقه على قرى: يعبد، وفقوعة، وصندلة، وقباطية، للاتصال بأهاليها. وليشرحوا لسكانها أهداف الثورة.

وكان الشعب في السابق يعرف القسام من على منبر جامع الاستقلال في حيفا، ويعرف القسام من خلال زياراته إلى حفلات الأفراح في القرى.

---

(١) «الثورة العربية الكبرى في فلسطين» (ص٢١ ـ ٢٢) وسيأتي التعليق على بيع القسّام لبيته إذ إنه لم يكن يمتلك بيتًا إنما كان يستأجر فقط.

(٢) «الإسلام وحركات التحرر العربية» لشوقي أبو خُليل (ص٢٠٤).

ويعرف إخلاص القسّام، لذلك فقد استجاب له ولرسله أعداد كبيرة من الرجال المخلصين. وكان الاستعمار في هذه الفترة يرقب تحركات القسّام بواسطة البوليس السري «الخونة».

ويُؤثر عن رجال القسام أن كل واحد منهم كان يحمل في جيبه نسخة من القرآن الكريم الذي اتخذوه قدوة لهم، وكانوا يرون أن كل السعادة هي في بلوغ مرتبة الشهادة، والانتقال إلى الحياة الأخرى، للتمتع بما أعده اللّه للمجاهدين والشهداء من نعم.

وقد روى سكان قرية يعبد حيث كان القسام يرابط بجماعة على مقربة منهم ـ أنهم لم يسألوهم أو يطلبوا منهم شيئًا في يوم من الأيام، بل كانوا في النهار يأوون إلى الكهف، يصلون ويقرؤن القرآن، وفي الليل يخرجون للتدرب على القتال.

وبعد يومين أي يوم ١٤ تشرين الثاني ارتكب أحد مناضلي القسام خطأً، كان سببًا في افتضاح أمر الثورة قبل إعلانها رسميًّا، وكانت خطة القسّام أن يتوزع رجاله على قرى المناطق الجبلية، حتى يضموا إليهم أكبر عدد من المناضلين، حتى إذا اكتمل العدد الذي يريد هاجم مدينة حيفا، واحتل دوائر الحكومة ومراكز الشرطة والميناء، وبعد أن يستتب له الأمر يعلن قيام الحكومة العربية، ويكون أعوانه في المدن الأخرى قد قاموا بذات عملية الاحتلال، فينتهي بذلك مأساة تهويد فلسطين التي لم تَحُل دونها حتى الآن جميع المفاوضات والاحتجاجات والمظاهرات.

ولكن الخطأ الذي ارتكبه أحد أعوانه عرض الخطة إلى الفشل، ففي ليلة ١٤ تشرين الثاني ١٩٣٥م كان المناضل محمود سالم المخزومي يقوم بالحراسة قرب قرية فقوعة، فشاهد دورية بوليس من الفرسان يقودها شاويش يهودي، وهي قادمة من مستعمرة عين حارود، فدب الحماس في المناضل الحارس

عندما وجد أنه يسيطر على موقع يستطيع منه التحكم في الدورية، فأطلق النار على الشاويش اليهودي فقتله، إلا أن زميله استطاع الهرب، فأبلغ مركز البوليس بالواقعة، وفي اليوم التالي قامت قوات كبيرة بتطويق جميع القرى المجاورة، ولما اقتربت من مواقع أعوان القسّام اشتبكت معهم في قرية (البارد)، ونشبت المعركة التي استشهد خلالها المناضل الشيخ محمود الحلحولي، وقتل اثنان من البوليس الإنكليزي، وتطورت الأمور، فأيقن حكومة الانتداب أن الثورة المسلحة قد أشرفت على القيام، وأن الجهاد الحاسم على وشك الاستنفار، عندئذ عقد اجتماع في مكتب المندوب السامي تقرر فيه ضرورة القضاء على هذه الثورة، وهي في مهدها مهما كلف الأمر قبل استفحال خطرها.

وأرسلت نجدات من رجال البوليس الإنكليزي من كافة المدن الفلسطينية إلى حيفا، تساندهم طائرات استكشافية، وفي صباح يوم ١٩ تشرين الثاني زحفت قوات البوليس إلى جبال جنين، وطوقت منذ طلوع الفجر قرى: يعبد، واليامون، وبرقين، وكفر دان، وفقوعة، وكان الشيخ القسّام مع أحد عشر مناضلاً في أحراش قرية (يعبد) في خربة الطرم في الجهة الشمالية الشرقية من يعبد.

أما إخوانه فهم: الشيخ محمد الحنفي أحمد، والشيخ يوسف الزيباوي، والشيخ حسن الباير، والشيخ أحمد جابر، والشيخ أسعد كلش، والشيخ نمر السعدي، وعرابي البدوي، وتوفيق الزيري، وناجي أبو زيد، ومحمد يوسف، وداود خطاب.

*** معركة يعبد:**

وعرفت القوات الإنكليزية أنَّ الشيخ القسّام هو قائد الثورة، وأنه يقيم في أحراش يعبد، فأرسلت إليه خمسمئة جندي فرضت عليه طوقًا بحيث لا

يمكنه الانسحاب، كما لا يمكن للنجدات أن تصل إليه.

«وحين طلب منه أن يستسلم أجاب إننا لن نستسلم إن هذا جهاد في سبيل اللّه، والتفت إلى زملائه قائلاً: موتوا شهداء».

ودارت معركة بين قوتين غير متكافئتين بالعدد والعدة، وكان كل مجاهد يقاتل أربعين جنديًا، ونشبت المعركة في الفجر، واستمرت حتى الظهر، فانتهت باستشهاد قائد الثورة الشيخ عز الدين القسام، والشيخ محمد الحنفي أحمد، رفيق جهاده في سوريا، والشيخ يوسف الزيباوي، كما جرح جميع إخوانه.

ووقع في الأسر الجرحي من المناضلين وهم: أحمد جابر، وعرابي البدوي، ومحمد يوسف، وتمكن الآخرون من الإفلات من طوق الجنود، وقد قتل من الإنكليز عدد كبير، إلا أن البلاغ الرسمي لم يعترف إلا بمقتل ثلاثة جنود.

ثم أصدرت السلطات البريطانية بلاغًا نعتت فيه القسام وصحبه بالأشقياء. وجرت بعد ذلك محاكمات تاريخية للأسرى من الجرحى وغير الجرحى.

وبذلك تمكن الإنكليز من القضاء على قائد الثورة وعدد من إخوانه الأبرار، وفشلت الخطة المقررة لاحتلال دوائر الحكومة في حيفا، والاستيلاء على الأسلحة التي ستسلم إلى المجاهدين للقيام بأعمال ثورية واسعة، لمنع إقامة دولة يهودية في أي جزء من أرض فلسطين.

وبعد سقوط العالم القائد المجاهد الشيخ عز الدين القسام واثنين من إخوانه الأبرار في ساحات الشرف والكرامة، واعتقال خمسة منهم، اضطر الآخرون إلى الاختفاء في الجبال لإتمام رسالة القسّام الثورية المقدسة في الوقت المناسب.

ولقد أكرم سكان مدينة حيفا البواسل الشهداء الأبرار، وتحدوا السلطات الغاشمة، وجرت جنازة مهيبة، اشترك فيها عشرات الألوف من أبناء الشعب، وجرت مظاهرات أثناء تشييع جنازة الشهداء، حيث هاجم أبناء الشعب الثائر دوائر البوليس، والدوريات الإنكليزية بالحجارة.

ونشرت تلك المظاهرات وعيًا في صفوف الشعب الفلسطيني العربي المسلم، وأخذ كل فرد يفكر بالثورة المسلحة على الظلم والطغيان، وأخذ إخوان القسام من العلماء يحرضون الشعب على القتال، وكان للعالم الشيخ كامل القصاب وزملائه دور بارز في استلام زمام المبادرة بعد القسام.

وسار موكب الجنازة مجللاً بالأعلام العربية، حيث صُلي على الشهداء في المسجد الكبير، وشيع القسّام إلى مقره الأخير في قرية الياجور التي تبعد عن حيفا نحو عشرة كيلو مترات، سارتها على الأقدام حاملة نعش الشهيد، فكان مشهدًا رائعًا من المشاهد الحقة.

وقد نُعِيَ الشهيد عز الدين القسام وصحبه من مآذن المسجد الأقصى ومساجد فلسطين، وصلى الناس عليهم في كل مكان صلاة الغائب.

وفي اليوم التالي كتب الأستاذ أكرم زعيتر واصفًا الجنازة فقال:

«هل رأيت اليمّ الصخّاب، الجائش الفوّار، المتلاطم الأمواج الموّار، المُرْغي المزبد الهدّار؟ هل رأيت البراكين المضطرمة تقذف الحمم والنار؟ هل سمعت الرعود القاصفة تجلجل؟ هل أحسست بالعواصف العاصفة تتدافع؟ هل رأيت الأتون المستعر المتلظى المتأجج الوهاج؟

إن لم يكن هذا، فسل مَن مشى في موكب الشهداء في حيفا التي دوّت صرختها اليوم في الآفاق، وتصاعد زفيرها إلى أجواء الفضاء.

كل ذلك من أجل عصابة أشقياء!! أستغفر اللّه، بل عصبة شهداء.

يقول البلاغ الرسمي: إنها عصابة من الأشقياء، وتقول الأمة الحية التي

مشت في موكب التشييع: كلا، إنهم أبنائي، وذُوّادي، إنهم مهجي وشهدائي.

وفطن أهل فلسطين إلى الغرض الذي أراده القسام باستشهاده.

وبذلك يكون المجاهد الشيخ عز الدين القسام أول من عمل عملاً مركزًا للثورة وزرع بذور الحقد على الاستعمار البريطاني الغاشم وربيبته الصهيونية، وترك للأمة عشرات المخلصين قاموا بالدور الرئيسي البارز بالثورة الكبرى التي اندلعت في ١٥ نيسان سنة ١٩٣٦م[1].

وقد أزعج القسام السلطة المنتدبة حتى بعد موته، فقد استدعى مدير المطبوعات أصحاب الصحف ورؤساء تحريرها، وحظر عليهم كتابة شيء عن القسام، وهدد بمحاكمتهم وتعطيل صحفهم.

ولقد ألقت ثورة القسام ظلاً كبيرًا على المسرح السياسي الفلسطيني، وأصبحت كل محاولة لإقامة تقارب بين الفلسطينيين والسلطات الحكومية محكومًا عليها بالفشل.

وبموت الشيخ القسام انطوت صفحة مجيدة من صفحات البطولة والتنظيم والتخطيط الإسلامي في معارك فلسطين، إلا أن ثورة القسّام لم تمت بموته، بل بقيت منارة لأحرار فلسطين يؤمنون بأنه لا حياة لهم ولا كرامة بدون السير على خط ونهج الثورة في الكفاح والجهاد لإعلاء كلمة اللّه فوق أرض اللّه المقدسة، وانطلاقة لهم منها إلى جهاد أعم وأشمل.

❑ قال الشاعر محمد صادق عرنوس:

من شاء فليأخذ عن القسام
أنموذج الجندي في الإسلام

(١) «جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن» (ص١٧٧).

وليـتخـذه إذا أراد تخلصـًا
من ذلـه المـوروث خيـر إمـام
تـرك الكـلام ورصـفـه لهـواته
وبضـاعـة الضعـفـاء محـض كـلام
أو مـا تـرى زعماءنـا قـد أتخمـوا ال
آذان قـولاً أيمـا إتخـام
كنـا نظن حقيقـة مـا حبـروا
فـإذا بـه وهـم من الأوهـام

❑ قال القسام ـ رحمه اللَّه ـ:

«ليس المهم أن نحرر فلسطين في بضعة أشهر، بل المهم أن نعطي من أنفسنا الدرس للأمة، وللأجيال القادمة»[1] .

❑ قال الأستاذ محمد حسن شُرّاب:

«استشهد القسّام فوجدوا في ثيابه مصحفًا، وأربعة عشر جنيهًا. وزعم بعض المؤلفين أن القسّام باع بيته في حيفا قبل خروجه فسألت الأستاذ عبدالرحمن بن محمد الحنفي هل كنتم تملكون بيوتًا؟ فقال: إن القسّام لم يمتلك بيتًا، وإنما كان يسكن بيتًا مستأجرًا»[2] .

* إنك واللَّه اليوم أخطب منك حيًّا:

❑ «أجمل وأبلغ ما قيل في أثر استشهاد القسّام[3] في الأمة قول أكرم

(١) «عز الدين القسّام» لشراب (ص٣٠١).
(٢) المصدر السابق (ص٣٠٢ ـ ٣٠٣).
(٣) لا نجزم بالشهادة لأحد إلاّ ما جزم له الرسول ﷺ ونحسبهم شهداء عند اللَّه ونكل أمرهم إلى اللَّه.

زعيتر في يوم جنازة القسّام: «لقد سمعتك قبل اليوم خطيبًا مفوّهًا، تتكئ على السيف، وتهدر من على المنبر، وسمعتك اليوم خطيبًا تتكئ على الأعناق، ولا منبر تقف عليه، ولكنك واللّه اليوم أخطبُ منك حيًّا».

ذلك أن استشهاد القسّام كان أبلغ خطبة سمعها الناس، فكان للشهادة تأثير دائم، وكانت الشهادة أنشودة الجهاد في جميع المعارك التالية.

وبعد ثلاثة أيام من استشهاد القسّام كتب أكرم زعيتر يقول: «ليس من سبيل إلى الخلاص إلاّ الجهاد الدامي، وقد فتح فقيدنا القسّام الباب فلنلجْه، وإنا لفاعلون، إنها دعوة جديدة أخذت تظهر على ألسنة الناس، ويجهر بها الكُتّاب، لم نكن نعرفها من قبْل، نفخت في الأمة روحًا لم تكن تفطن لها[1].

❑ وقال عجاج نويهض: «سافر القسّام، وكان جواز سفره الأكبر مصحفًا في جيبه وقلبه».

❑ وقال حمدي الحسيني: «إن القسّام عدّل من هذه القضية ما اعوجّ».

❑ وقال صبحي الخضراء: «إن القسّام قضى على الردّة التي أفسدت على البلد اتجاهه».

❑ وقال أحمد الشقيري: «حاول الإنكليز أن يَصِموا القسّام بإشاعات كثيرة، منها: أن الشيوعيين هم الذين استخدموه. كذبوا كذبوا».

❑ وقال أكرم زعيتر: «بالأمس دفنّا القسّام، ودفنّا معه العدل البريطاني. لماذا التمجيد والتأبين ألأنهم ماتوا؟ كلا، بل لأنهم عرفوا كيف يموتون، وأيّ سبيل إلى الجنة يسلكون، القسّام خاطب العاتي بأفصح لغة، وأكرم بيان، فتح في القضية باب الجدّ، ودقّ بيده المضرّجة باب المجد».

(١) «عز الدين القسّام» لشراب (ص٣٠١).

❑ وقالت جريدة الجامعة العربية بتاريخ ٣/ ١/ ١٩٣٦م: «يحتفل أبناء فلسطين بإحياء ذكرى مجاهد من «سوريا الشمالية» سقط شهيداً في سبيل استقلال «سورية الجنوبية»، وليس ذلك فحسب، بل قاد حملة جهاد لعلها الأولى من نوعها في تاريخ الإسلام الحديث في فلسطين وسورية والشرق العربي بأسره».

«يُجمع المؤرخون الذين عاصروا العقد الرابع من القرن العشرين على أن استشهاد القسّام كان المولد، والحياة والقدوة للشعب الفلسطيني في جميع مراحل نضاله، حيث قدّم القسّام إلى الشعب المسلم في فلسطين المثل الأعلى في الجهاد الذي كان ينتظره وألهبت حركته واستشهاده في الشعب الحماس، وصارت مثلاً للجرأة والجهاد العلني ضد الإنكليز. وأجبر أصحاب الاتجاهات السياسية والفكرية على الإقرار بتفوق العمل القسّامي على كل عمل يسبقه، وقوة تأثيره فيما لحقه، ولم يتفق الكُتّاب والمؤرخون على صحة زعامة رجل عمل في الحقل الوطني كما اتفقوا على استحقاق القسّام لقب الزعيم والقائد[1].

❑ وقال أكرم زعيتر في رسالته إلى المندوب السامي في ١٩/ ٤/ ١٩٣٦م: «إن شخصاً كالشيخ عز الدين القسّام لا ينتمي إلى عائلة كبيرة، ولا يمت بصلة إلى الزعامات الحكومية، ولم يرشح نفسه لكرسيّ من كراسيها، يتمتع برعاية وتقديس واحترام لا يحلم بمثله أكبر زعيم».

❑ وقال «عجاج نويهض» يصف حال فلسطين بعد استشهاد القسّام: «كانت فلسطين تُولد رُوحيًّا ولادة ثانية. صارت صورة القسّام وحواريه كأنها آية نجوم سماوية تضيء، لا فلسطين وحدها، بل الرقعة العربية كلها،

(١) المصدر السابق (ص٣٠٩ ـ ٣١٠).

اكتسحت نفوس الناس موجة كلها عواصف وزعازع، وزفير كزفير النار. ابن العاشرة استوى في هذه الموجة مع ابن العشرين والثلاثين والأربعين، حتى التسعين فما فوق، النساء أصبحن يحملن الروح القسّامية أشد من الرجال.

❑ وصل تأثير استشهاد القسّام إلى عواصم الأقاليم العربية، وأرسل الدكتور أمين رويحة من بغداد لأكرم زعيتر برقية قال فيها: «لقد أحيا القسّام وإخوانه في نفوسنا الأمل، بعد أن كدنا نفقده، وليتني علمت بعصابتهم قبل الآن، لكنتُ واللَّه أوّل من ينضمّ إليهم، فهذا واللَّه سبيل الخلاص وَحْدَه».

❑ وقال المؤرخ عمر أبو النصر مؤرخًا ثورة ١٩٣٦م: «إن الثورة لم تبدأ في نيسان سنة ١٩٣٦م، بل بدأت يوم تشييع القسّام، يوم رأينا حيفا تضطرب في موجة حزن، وتجتمع في نعش ميت، وتخرج بأعلامها ورواياتها وآلامها وأحزانها ونسائها وشيوخها وشبابها، تضع هذا كله على بضعة أشبار من الأرض استراح إليها بطل، ضحكت أمانيها على فمه، ولم تفطن إلى عبقريته وتضحيته حتى سقط على أرضها صريعًا، عندئذ فَطِنت إلى عظَم ما قام به في سبيلها، وكيف أنه نفخ فيها روحًا لم تكن تفطن لها مِن قبْل. وكذلك جعل اللَّه من جثة القسّام الهامدة وطنًا يُشعِر بالحرية، ويعيد للذكرى التضحيات، بل يَا لَهُ من جسدٍ لم يكد الموت يتلقاه حتى أفاض الحياة على هؤلاء الذين يعيشون على الأرض من غير أن يفطن واحدٌ منهم إلى أضواء الحياة».

❑ **قال القسام:**

«إن الصليبية الغربية الإنجليزية، والصهيونية الفاجرة اليهودية، تريد ذبحكم كما ذبحوا الهنود الحمر في أمريكا، تريد إبادتكم أيها المسلمون، حتى يحتلوا أرضكم من الفرات إلى النيل، ويأخذوا القدس، ويستولوا على المدينة المنورة، ويحرقوا قبر الرسول ﷺ، إنهم يريدون اللعب بأمهاتكم

وبناتكم وأخواتكم وتحويلهن إلى خدم وسبايا!!.

يا ويلكم ألا تفهمون؟ رسول اللَّه ﷺ يقول: إذا ديس شبر من أرض المسلمين، فعلى المرأة أن تخرج بغير إذن زوجها[1]، وعلى الولد أن يخرج بغير إذن أبيه، أيها المسلمون ألا تفهمون؟

أيها المؤمنون، فرض اللَّه علينا الجهاد ليحمينا به، ليحمي أرضنا وعرضنا، قال تعالى: ﴿**قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة**﴾ لقد ملأ اليهود بلادكم، ولقد سرقوا أرضكم.

ولما حان الوقت المناسب، صرخ القسام من فوق منبر الاستقلال بألوف المسلمين: «باسم اللَّه نعلن الثورة، سأخرج فورًا إلى الجهاد، لن أعود إلى هذا الجامع إلا بعد طرد الإنجليز واليهود»[2].

وخرج ولم يعد، لا لشيء إلا لأنه سقط شهيدًا».

*** الحمد للَّه الذي شرفني باستشهاد أبي:**

وفي أول مؤتمر نسائي عربي في التاريخ عقد لأجل فلسطين عام ١٩٣٨م وقفت ميمنة ابنة الشهيد عز الدين القسام خطيبة في وفود النساء، وحدث في أثناء إلقائها الخطاب أن غلبها التأثر، وبدرت منها بادرة إغماءة، وكان ذلك التأثر البالغ، يبدو جليًّا على العموم، دموعًا أو تصفيقًا، فأجلست، وأحضر الماء لرشه على وجهها وسارعت السيدة ساذج نصار، فتناولت الخطاب، وراحت تكمله بإلقاء موفق، ولكن لم تكد تلقي فقرات منه، حتى نهضت ميمنة، واستعادت وعيها، وتناولت الخطاب في عاصفة

---

(١) هذا في جهاد فرض العين. ليس هذا بحديث، ولكن هذا ما فهمه أهل العلم من النصوص الآمرة بالجهاد إذا أصبح فرض عين.. حين يداهم العدو بلدة بعينها فيصير الجهاد فرض عين على أهل تلك البلدة.

(٢) «الإسلام وحركات التحرير العربية» (ص٢١٠).

من التصفيق، واستأنفت إلقاءه ومما جاء فيه:

«هل تسمحن أن تتكلم عربية يا سيداتي، أبوها شيخ جليل، وعالم من علماء الدين، له أنصار وتلاميذ، ألف منهم عصبة كريمة مجاهدة، ومضى بهم إلى أحراش يعبد وروابي جنين.

وهناك وقف في مواجهة جيش الظالمين، وهتف بإخوانه:

اللَّه أكبر، اللَّه أكبر. ثباتًا ثباتًا موتوا في سبيل فلسطين، وما هي إلا ساعة حتى كان أبي وملاذي، الشيخ عز الدين القسام، صريع الظلم والعدوان يخضب دمه عمامته البيضاء، ويسقي شجرة الاستقلال في ثرى فلسطين، وقال التاريخ: عز الدين أول شهيد في الثورة، دق باب الحرية بيده المخضبة بالدماء، فكان استشهاده أستاذًا في الفداء، أما طلابه ومريدوه فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً.

نعم، منهم من خاض الغمرات وعشي المعامع، واستبسل في الوقائع، وهو لا يزال في الجبال، والوهاد، في المغاور والكهوف، لم يلق سلاحه، ولم يستسلم، حتى تنجو فلسطين من كيد الكائدين.

أما أنا فلست أقول سوى: الحمد للَّه، ثم الحمد للَّه الذي شرفني باستشهاد أبي، وأعزني بموته، ولم يذلني بهوان وطني واستسلام أمتي»[1].

❑ وقال الشاعر عبدالرحيم محمود:

حفي اللسان وجفّت الأقلام
والحالُ حالٌ والكلام كلامُ
إني رأيتُ الحقَّ فَصْل خطابه
يتلوهُ فينا الفيصل الصمصامُ

(١) «عز الدين القسّام» لعوني العبيدي (ص٨٨ ـ ٩٠).

اصهر بنارك غُل عُنْقك ينصهرْ
وعلى الجماجم تركزُ الأعلامُ
وأقم على الأشلاء صَرْحَك إنما
من فوقها تُبنى العُلا وتُقامُ
وخذ الحقوق إليك لا تَسْتَجْدِها
إن الأُلي سلبوا الحقوقِ لِئامُ
هذي طريقك للحياة فلا تَزِغْ
قد سارها من قبلك «القسّام»
ذاك الذي هجر الكلام لِفَتْكَةٍ
بِكْرٍ وهلْ فكُّ القيودَ كلامُ؟

*** هذا عزّ الدين فماذا قال الساسة:**

«في سنة ١٩١٩م جاءت إلى اللاذقية لجنة من الأمريكيين لاستفتاء الناس في شأن مصيرهم، واختيار دولة تكون وصية عليهم فشخص وفد من جبلة لمقابلتها، وكان الشيخ من أعضائه، وعندما سُئل عن رأيه جهر بالقول: لا وصاية، ولا حماية، فقال رئيس اللجنة: نعتقد أنكم لا تستطيعون إدارة أنفسكم، وحماية بلادكم، فردّ الشيخ قائلاً:

«إننا نستطيع، وليس غيرنا أقدر منا على ذلك، ولدينا قوّة لا يملكها سوانا»(١).

وأخرج المصحف من جيبه وقال: هذه قوّتنا».

❑ وبعد ستة أيام من موت القسّام اجتمع ممثلوا الأحزاب السياسية مع

---

(١) «عز الدين القسّام» لشراب (ص٣٧٠).

المندوب السامي وقدّموا له مذكرة جاء فيها: «إنهم إذا لم يتلقَوْا جوابًا عن مذكرتهم، يكونُ مُرضيًا فإنهم سيفقدون كل ما يملكونه من نفوذٍ على أتباعهم، وعندئذ تسود الآراء المتطرّفة غير المسؤولة، وتتدهور الحالة سريعًا»[١].

فجعلوا الخوف على النفوذ والمراكز دافعًا لتحقيق المطالب، وجعلوا إعلان الجهاد بالسلاح سلوكًا متطرفًا!!

*** شَنْشِنة أعرفها من أخزم[٢] :**

قد أعاد التاريخ نفسه بعد ستين عامًا، فسرَت هذه «الشَّنْشِنة» من أخزم إلى أولاده، فما زلنا نسمع العبارة نفسها من المفاوضين والرؤساء، والقوّاد «إذا لم تعطونا ـ الأقل من القليل ـ ساد المتطرفين والإرهابيون» فعدَّ أبناء أخزم المطالبة بفلسطين كلها تطرفًا وإرهابًا.

* * *

(١) المصدر السابق (ص٣١٤).

(٢) مثل عربي. والشنشنة: الطبيعة والسجيّة، وكان أخزم عاقًّا لأبيه، فمات وترك بنين عقّوا جدّهم وضربوه، فقال الجدّ ذلك.